

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٨ —

الديانة المصرية

العلم والأدب والفن والقانون

رأى رجال الدين أن الشعب لا يتبع التقاليد الدينية إلا إذا امتزجت تعاليمها بنفوس أبنائه امتزاجاً قوياً، وهذا لا يتيسر إلا إذا بشر بالدين رجال مثقفون فصحاء يملكون أئنة البلاغة ويستولون على أزمة البيان. وإذا، فهم مضطرون قبل كل شيء إلى أن يفسحوا في مدارسهم للأدب أمكنة واسعة وأن ينزلوه بين معارفهم منزلة عالية وقد فعلوا، فكان من نتائج هذه العناية الفائقة بالأدب أن ظهر كتاب «افتاح حجب» وزير الملك «إيزيس» الذي هو أقدم كتاب في الدنيا والذي يرى فيه القارىء من الحكم والنصائح والأمر باحترام المرأة وإعزازها والتحذير من إغصاب الملوك والرؤساء والحث على طلب العلم واعتباره أهم ضروريات الحياة وألزم واجبات الأشخاص من كل الطبقات إلى غير ذلك من وصف حلاوة الشباب ولذة القوة ومرارة الشيخوخة وانكسار النفس في أيامها وانطفاء مصباح الآمال والأحلام إلى آخره إلى آخره، مما يجعل من غير الممكن أن يكون كتاب هذا شأنه من منتجات عقول شابة في الأدب، ناشئة في الكتابة والتأليف.

ومن الطبيعي أن الأمة التي يصل فيها الدين والأدب إلى هذه المرتبة الرفيعة تسمو فيها الحالة الاجتماعية سمواً عظيماً يتبعه تقدم في جميع نواحي الحياة، لأن الأمة تنبغ في المخترعات وتبرع في الفنون بمقدار حاجتها إليها، وهذه الحاجة تعدد تبعاً لتقدم المدنية التي هي أولى مظاهر السمو الاجتماعي.

وإذن، فالدين يتطلب سمو الأدب، والأدب عامل أساسي في الرقي الاجتماعي، والمدنية أولى مظاهر هذا الرقي، والحاجة إلى الاختراع والفن طليعة نتائج تلك المدنية. وهذه هي الدرجات التي صعدت عليها الدولة المصرية القديمة حتى وصلت إلى قمة سلم الحياة العالية فارتقت فيها الفنون الجميلة على اختلاف ألوانها حتى وصلت إلى درجة حيرت كبار الفنين في العصر الحديث.

لم تكن معارف المصريين إبان الدولة القديمة ناشئة ولا في أول عهدها بالحياة كما يزعم الجاهلون، وبدل على ذلك أنه في أواخر القرن الماضي اكتشف عالم من كبار المستصرين الفرنسيين خلف الهرم الغربي جثة موظف كبير من موظفي الإمبراطورية الأولى كتب على تابوته العبارة التالية: «هذه جثة الحارس الأكبر لدار الكتب الملكية».

وقد علق الأستاذ «ماسبيرو» على هذه العبارة في كتابه «تاريخ الشرق القديم» طبعة أولى بأن هذه المكتبة التي كان هذا الموظف الكبير مديراً أو حارسها كانت تحوى بين جدرانها كثيراً من الكتب في الأدب والفلسفة والأخلاق والتاريخ والاجتماع والقانون والسياسة والمطب والحساب والهندسة والفلك والسحر والتنجيم.

ويؤكد الأستاذ «ماسبيرو» أن هذه المواد التي كانت موجودة في أدمغة العلماء ومسطرة في أوراق البردي لم تكن أثناء الدولة القديمة في عهد الحداثة والتكوين، بل كانت قد نضجت نضوجاً تاماً وأصبحت في دور الاتاج العمل المفيد، إذ أن من المستحيل أن تبنى الأهرام في عصر يادى في الهندسة لم يتعمق أهلها — أو العلماء منهم على الأقل — في غامض النظريات ومعقد الرسوم؛ وكذلك من المستبعد عقلاً أن تصور أن المحاكم التي لا تحكم على المجرم إلا بعد سماع المرافعات الشفوية الطويلة، وقراءة المذكرات التحريرية المقدمة من المتهم يكون قضاتها ومستشاروها حديثي عهد بالقوانين المدنية والجنائية.

وإني أتنهز فرصة هذه المناسبة فأذكر لك مثلاً من أمثلة استقلال هذا القضاء وعدالة الملوك في تلك العصور الغابرة التي تصور أنها كانت مفعمة بالظلم والاستبداد: حاولت زوجة «باتو» الخاتنة قتل زوجها عدة مرات

على سلامة الجمهور من نظام القرن العشرين الذى لا يتحرز فيه الاطباء من العيث بأرواح المرضى الذين أصبحوا لهم عبيداً يأثمرون بأوامرهم التى لا يلاحظ فيها قانون ولا ترتب عليها أية مسئولية رادعة ، بل لا يترتب عليها سؤال بسيط من قبل القضاء. وضحايا الاطباء والصيادلة الذين لا يعنون العناية الكافية بتركيب الدواء لا تتدرج تحت حصر ، ومهما يكن من الأمر فهل تتصور أن أطباء ناشئين فى الطب أو مبتدئين فى الحكمة لم يقتنعوا بعد بتجارهم العلمية يقدمون على تعريض حياتهم للخطر؟ أحسبك بعد أن صورت لك هذه المنزلة العالية التى ارتقى إليها الطب المصرى فى العصور القديمة توافقنى على أن الآراء القائلة بأن الطب المصرى كان نوعاً من الرقى والتعاونيد السحرية أو مشوباً بها كما صرح الأستاذ أمين الخولى فى مذكراته صفحة ٤٤ هى ضرب من الخرافات التى ليس لها من الأدلة العلمية مستند ولا دليل.

وإذا ألقينا نظرة متأملة على الرسم مثلاً وجدناه لا يقل روعة وجلالا عن بقية الفنون والعلوم الأخرى التى أسلفنا لك أنها كادت تصل إلى مرتبة الكمال . وأخص ما يمتاز به الرسم المصرى هو ما يشاهده عليه الراى من الحياة لأنك حين تنظر إلى ما يرسمونه من صور لا تشك فى أنها حية تستمتع بالحركة والاحساس وذلك لإتقان رسمها وإجادة الفن فيها .

ولقد بلغ هذا التصوير درجة جعله يعم المعابد والمقابر ثم يتخطاها إلى المنازل والمنتديات ، والحدائق والمنتزهات والمحاكم والدواوين وينتشر على الحوائط والأسوار والسقوف والأراضي وفى غرفة النوم وحجر الاستقبال وقاعات المائدة وفى كل مكان . وإليك ما قاله الأستاذ « بريستيد » فى هذا الشأن : « وبلغت الفنون الجميلة درجة قريبة من الطبيعة . بعيدة عن الأوهام لم تبلغها أية بلدة أخرى فى تلك العصور القديمة إلى أن يقول : « بل كان المصرى مغرماً بمظاهر الطبيعة الأصلية فقط كما براها داخل منزله وخارجته ، ولذلك نقش زهر (اللوطس) على أيدى ملاعقه وشرب النبيذ فى أقذاح زرقاوية اللون على شكل برعوم اللوطس ، وصنع أرجل سريريه بهيئة أرجل الثيران القوية العضلات ولبسها بالعاج ، ورسم سقف منزله بهيئة سماء تبدو منها النجوم ورفعها على عمد

قبل أن يجلس على عرش مصر ، فلما تولى المملكة لم يشأ أن يقتلها دون تبرير هذا القتل بحكم المحكمة ، ولم يكن شئ أسهل عليه من أن ينتقم بالقتل من زوجة بجرمة أئيمة ، ولكنه أعلنها بالحضور أمام المحكمة التى تألفت من كبار رجال القضاء فى الدولة ، ووقف جلالتة خصماً نزيهاً لهذه الخاتنة ، وتلا مذكرة الاتهام على مسامع القضاة ثم ترك لهم الكلمة ، فطلبوا إليها أن تدافع عن نفسها ، ولكنها حنت رأسها مشيرة إلى الإفلاس من البراهين وإلى التسليم بالاجرام ، فأصدر القضاة حكمهم عليها بالاعدام . فانت ترى هذه الصورة العادلة التى صور بها مؤلف القصة فرعون العظم . وقد تكون هذه القصة خيالية ، ولكن الذى لا شك فيه هو أن الكتاب فى كل عصر يستمدون مؤلفاتهم مما يقع حولهم من الحوادث ولو فى شئ من المبالغة والمغالاة فنحن نستطيع أن نؤكد أنه كان فى تلك العصور الغابرة قضاة يستندون فى أحكامهم إلى قوانين مدنية وجنائية ، وأنهم كانوا يسمعون ويقرأون دفاع المتهمين وشهادة الشهود ، بل يبالغ الأستاذ « نوبارى » المستمصر الألماني فىؤكد لنا أن القضاء فى تلك العصور كان لا يقل عنه فى عصرنا الحاضر بحال .

وإذا غادرنا القضاء وعنايته بالقوانين وتوجيه العدالة والإنصاف واهتمامه بأنواع الدفاع وضروب المرافعات ثم اتجهنا إلى الطب ألفيناه قد بلغ حد النضوج ووصل إلى درجة توشك أن تلحق بالكمال . ويرهن على ذلك ثقة الأطباء بأنفسهم وتحققهم من معارفهم إلى درجة المجازفة بحياتهم فى سبيل توطيد تلك المعارف ، فقد كان الطبيب إذا اخترع نوعاً جديداً من الدواء لم يكن قد سبقه إليه طبيب آخر يرفع اختراعه إلى هيئة الاختصاص حتى إذا نظرت فيه استدعته أمامها وتلت عليه نص الشرط الذى تلخصه فيما يلى : « للطبيب أن يعالج مريضه بهذا الدواء الذى اخترعه ، فإذا شفى وثبت بالكشف الطبى أنه شفى بسبب هذا الدواء ، منح مكافأة مادية قدرها كذا وكذا . وأخرى معنوية ، وهى تدوين اسمه واسم دوائه فى الدواوين الرسمية والكتب العلمية المقررة ، وإذا مات المريض مسموماً بدوائه حكم على الطبيب بالاعدام . » فإذا قبل الطبيب هذا الشرط وأخذ منه توقيع بالقبول أمام شهود عدول صرح له بالابتداء فى تجربة الدواء . وفى رأينا أن هذا النظام المصرى القديم أدق وأحرص

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألماني فرديريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

مشاهير الحكماء

جميعكم أيها الحكماء المتمتعون بالشهرة ، قد خدمتم الشعب وما يؤمن به من خرافات ، ولو أنكم خدمتم الحقيقة لما كرمكم أحد ، ومن أجل هذا احتمل الشعب شكوككم في بيانكم المنمق لأنها كانت السبيل الملتوى الذي يقودكم إليه . وهكذا يوجد السيد لنفسه عيداً يلهو بضلالهم الصاخب . وما الإنسان الذي يكرهه الشعب كره الكلاب للذئب إلا صاحب الفكر الحر عدو القيود الذي لا يتعبد ولا يلذ له إلا ارتياد الغاب

إن ما حسبه الشعب في كل زمان روحاً للعدل إنما هو العدو الكامن المترصد لروح الحرية يستنح عليها أشد كلابه افتراساً وقد قيل في كل زمان (لا حقيقة إلا في الشعب فويل لمن يطلبها خارجاً عنه)

لقد أردتم أن تؤيدوا الشعب في ما يبدى من خشوع وإجلال ، فدعوتهم هذه المذلة (إرادة الحق) فيا لكم من حكماء غير أنكم كنتم تقولون في أنفسكم لقد نشأنا من الشعب وصوت الشعب هو صوت الله فكنتم كالخمار الصبور المراوغ تعرضون وساطتكم على الشعب ، ولكم من ذى سلطان أراد أن توافق عجلته ذوق الشعب ففطار لجرها حماراً صغيراً ، حكماً مشهوراً ...

فيامشاهير الحكماء ، إننى أطلب منكم أن تخلصوا عنكم ما تتلبسون به من جلود الأسود وجلود الوحوش الكاسرة المخططة وفراء المستكشفين للجهل والفاتحين . إذ لا يسعنى أن أؤمن بالحقائق التي تنادون بها ما لم تقلعوا عن بذل التبجيل والتعظيم ، فما رجل الحق إلا الضارب في القفار ولا إله له لأنه

شبيهة بالنخيل الباسقة الأغصان أو بسيقان اللوطس المنتهية أعاليها يبراعيم ذلك النبات ، وكثيراً ما زين المصري سقوف حجراته برسوم الحمام والفراش الطائرة بين الأشجار . وكان يحلى أرض منزله باللون الأخضر على شكل مستنقعات يسبح بين أعشائها السمك وشاهد بها أحياناً ثيراناً وحشية طاردة للمصافير المحلقة فوق الأعشاب المائلة ، ويرى الناظر أن هذه الطيور تسعى في الوقت نفسه لخلاص صغارها من ابن عرس الذي يريد اقتراسها .

أما الأدوات المنزلية المستعملة يومياً في منازل الأغنياء فجميلة متناسبة الأجزاء تشاهد على أبسطها صنعا مناظر الطبيعة وجمالها المراثيات في خلال القطر المصري (١) .

وليس هذا هو كل شيء في رقى الصناعات العملية في مصر بل إن هناك خوارق ومعجزات ظهرت على أيدي أولئك الصناع المهرة البارعين ، فالتاريخ يحدثنا بأن الصائغين قد بلغوا في صناعة الحلى دقة لم يسع فني مصر الحديث إلا أن يعترفوا أمامهم بمعجزهم الكامل عن مجاراتها ، وهو يثبتنا كذلك بأن صناع الكؤوس والأكواب قد وصلوا في صناعتهم إلى حد أن يتدعوا أكواباً من الصوان تشف عما في دخلها فيرى في وضوح كما يرى ما هو في داخل الزجاج سواء بسواء ، وأن النساجين توصلوا إلى صنع غلائل من الكتان شفافة لا تصعب ماوراءها ولا ريب أن هذا هو في الصناعة أعلى مراتب الإعجاز . ويحدثنا الأستاذ بريستيد ، في صفحة ٦٦ من كتابه أن مهندسى العمارة والبنائين عرفوا شيئاً كثيراً من علم رفع الأثقال (الميكانيكا) كما يستدل من قبو مقبرة بيت الخلاف يرجع تاريخها إلى القرن الثلاثين قبل الميلاد وغير ذلك مما يبرهن على أن العلوم العقلية والعملية كانت قد وصلت في مصر إلى أبعد مدى تستسيغه تلك العصور .

هذا ، ولما كانت الفلسفة الهندية هي أهم الفلسفات الشرقية جميعها بعد فلسفة مصر من ناحية وأقدمها إلا الفلسفة المصرية من ناحية أخرى فقد أثرتنا أن نثني بها بعد أن بدأنا بفلسفة وادى النيل التي هي مبدأ الجميع في رأى أدق العلماء والباحثين .

(ينج)

محمد غنم

(١) راجع صفحة ٦٧ من كتاب الأستاذ بريستيد